الإعجاز اللغوي والبيان في القرآن الكريم، قصة آدم عليه السلام نموذجا، دراسة بلاغية

د.أحمد محمد ثالث

المقدمة

هذا البحث بعنوان : " الإعجاز اللغوي والبيان في القرآن الكريم، قصة آدم عليه السلام نموذجا، دراسة بلاغية "، يتناول ما يأتي :

أ. مدخل : طريقة عرض قصص الأنبياء في القرآن الكريم .

ب. الإعجاز اللغوي والبيان في قصة آدم عليه السلام، وتشتمل هذه النقطة على :

١. السر الدلالي البلاغي في استعمال النداء والاستفهام(الخارجين عن معناهما الأصلي).

٢. السر الدلالي البلاغي في استعمال الأمر والنداء(الخارجين عن معناهما الأصلي)، والقسم، والاستعارة، والكناية.

٣. السر الدلالي البلاغي في استعمال النداء(الخارج عن معناه الأصلي)، والأمر الحقيقي .

إن قصص الأنبياء تكررت في القرآن الكريم في سور متعددة،" وهذا التكرار في الغالب يشير إلى مغزى وحكمة وعظية يقتضيها السياق" (١)، وعلى ضوء هذا يهدف هذا البحث إلى الوقوف على أسلوب كل آية من الآيات التي وردت في قصة أبينا آدم عليه السلام في سور متعددة، وتشابهت هذه الآيات في الصيغة، إلا اختلاف في كلمة أو عبارة، فعندها يحاول تتبع ذلك، ليكشف عن سبب هذا الاختلاف من الناحية الدلالية، ثم يقف على النكتة البلاغية في الآيات فيحللها، مع الإشارة إلى الدور الذي تقوم به هذه النكتة البلاغية، والأثر الدلالي الذي تحدثه في مضمون الآية أو الآيات، إبرازا للإعجاز اللغوي والبيان في القرآن الكريم.

وقيمة هذا البحث تأتي في كونه يضع الأيدي على الأسلوب القرآني الراسخ، المدقق في وضع الألفاظ في أماكنها المناسبة، ومعرض الوعظ والإرشاد تحت لغة ذات دلالة معجزة،مع استعمال الصور البلاغية المبينة للمعاني، لترسخ في أذهان البشرية، لأن " البلاغة تنهي المعنى إلى قلب السامع فيفهمه "(٢).

مدخل

طريقة عرض قصص الأنبياء في القرآن الكريم

إن المتأمل لكتاب الله الحكيم يدرك أنه لم تُتّخذ طريقة واحدة في عرض قصص الأنبياء من حيث الأداء، بل توجد قصة طويلة مفصلة، وقصة قصيرة مجملة، وكل يأتي لغرض سيق من أجله(٣). وأن بعض هذه القصص ذكر مرة واحدة، مثل قصة سيدنا يوسف عليه السلام، وبعضها الآخر تكرر أكثر من مرة، مثل قصة سيدنا نوح عليه السلام، وهذا النوع الأخير كذلك متفاوت. وقد يكون هذا في موضوع أو أكثر، مثل قصة موسى عليه الصلاة والسلام، حيث كررت في خبره مع فرعون، ولم تكرر مع العبد الصالح، وإنما ذكرت في سورة الكهف فقط.

ويدرك أن الأنبياء الذين كررت قصتهم في أماكن متعددة هم "الذين تحملوا المشقة ولاقوا العنت، من أقوامهم"(٤) وبعبارة أخرى إن قصص الأنبياء التي تكررت بكثرة كانت ذات صلة وثيقة بقضية الدعوة والدعاة إلى الله تعالى، تكررت في: آدم، ونوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وموسى عليهم الصلاة والسلام. إلا أن قصة أبينا آدم عليه الصلاة والسلام خرجت من الصلة المباشرة بالدعوة والدعاة، ولعل السر في ذلك - والله أعلم - راجع إلى أن قصته وردت تخاطب البشر عن النواحي الفطرية والجوانب الرئيسة في حياتهم، وعن الاستعدادات والغرائز التي تتكون منها طبيعتهم(٥). وذلك لأن مبدأ الحياة كان في عصره، ولم يكن هناك صراع بين طائفة مؤمنة وأخرى كافرة، سوى ما يمهد لذلك في قصة قابيل وهابيل، إعلانا للفطرة

والطبيعة البشرية، وما يلازم الإنسان من عداوة وحسد إبليس، كما جاءت في قصته غريزة المأكل والملبس.

وقصته وردت في القرآن الكريم في سبع سور، وفي اثنتين وثمانين آية، على النحو التالي:

(١) في سورة ص، وفي خمس عشرة آية، من قوله تعالى ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴾[ص: ٧١]، إلى قوله ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[ص: ٨٥].

(٢) في سورة الأعراف، في خمس عشرة آية، من قوله تعالى﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [الأعراف: ١١]، إلى قوله ﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٥].

(٣) في سورة طه، وفي ثلاث عشرة آية، من قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾ [طه: ١١٥]، إلى قوله﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾[طه: ١٢٧].

(٤) وفي سورة الإسراء، في خمس آيات، من قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ [الإسراء: ٦١]، إلى قوله ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ [الإسراء: ٦٥].

(٥) في سورة الحجر، في ثلاث وعشرين آية، من قوله تعالى﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر: ٢٦]، إلى قوله﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾[الحجر: ٤٨].

(٦) في سورة الكهف، آية واحدة، هي قوله تعالى﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٠].

(٧) في سورة البقرة، وفي عشر آيات، من قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[البقرة: ٣٠]، إلى قوله ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[البقرة: ٣٩].

الإعجاز اللغوي والبيان في قصة آدم عليه السلام

إن الآيات الواردة في قصة أبينا آدم عليه الصلاة والسلام، توضح جليا أن بعض التعبيرات تكرر من مكان إلى مكان آخر، وذلك لسر دلالي مقصود، ففي سورة "ص" يقول المولى عز وجل ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴾[ص: ٧٥]، وقال في سورة الأعراف ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ... ﴾ [الأعراف: ١٢]، ثم قال في سورة الحجر ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾[الحجر: ٣٢]. وبالنظر إلى هذه الآيات الكريمة يُرى أنه استعمل النداء في سورتي "ص" والحجر، ولم يستعمل في سورة الأعراف، واستخدم لفظ﴿ مَا مَنَعَكَ ﴾ في سورتي"ص" والأعراف، وجعل مكان ذلك ﴿ مَا لَكَ ﴾ في سورة الحجر، ولما جاء للأمر المسؤول عنه قال في سورة "ص" ﴿ أَن تَسْجُدَ ﴾ وقال في سورة الأعراف ﴿ أَلَّا تَسْجُدَ ﴾ وأما في سورة الحجر فقال ﴿ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾.

والسر الدلالي البلاغي في استعمال النداء في سورتي "ص" والحجر، لانحطاط منزلة ودرجة إبليس اللعين الحاصلين من التمرد والعصيان، لما يتمثل عليه من " الإباء والاستكبار والكفر "(٦) لأمر الله تعالى. لأن حرف النداء " يا " وضع أصلا لنداء البعيد، وأما إذا قُصد انحطاط منزلة القريب فيستعمل، إشارة إلى أنه بعيد ومنحط الدرجة والمنزلة(٧). فإبليس في هذه القصة متمثل أمام الله تعالى، ولما لم يخضع لأمر الله تعالى، أراد الله إذلاله وناداه بما ينادى البعيد، ثم أتبع ذلك باستفهام يدل على الإنكار والتوبيخ(٨) الشديدين على الفعل الذي حصل، وكذلك التوبيخ الشديد على الفاعل الذي صدر منه الفعل(٩)، وهو إبليس اللعين. وهذا السر الدلالي صادر من وقوع لفظ (منعك) بالنسبة للتوبيخ الشديد الواقع على الفعل، ومن وقوع اللفظ المتعلق بالفاعل (مالك) في حق التوبيخ الشديد الواقع على الفاعل، لأن " معناه: أي شيء ثبت لك، أي متمكنا منك "(١٠)، وهذا التوبيخ حصل من أجل " ترك فعل كان ينبغي أن يقع "(١١).

فالمعنى المفهوم من التوبيخ الواقع في هذا المشهد المكرر في قصة سيدنا آدم عليه السلام، هو أنه في سورتي "ص" والأعراف حيث جاء فعل (منع) بعد (ما) الاستفهامية مركز على الفعل، بمعنى أن الضغط أو النبر فيه كان على امتناع إبليس عن السجود، وعلى هذا يحمل قول ابن عاشور : " وفي إلقاء هذا السؤال إلى إبليس قطع بمعذرته . والمعنى : أمن أجل أنك تتعاظم بغير حق أم أنك من أصحاب العلو ... أي من العالين على آدم فلا يستحق أن تعظمه ..." (١٢).

وأما في سورة الحجر التي جاء فيها (لك) بعد " ما " الاستفهامية، فكان الضغط هنا على توبيخ الفاعل؛ إبليس اللعين، لأن اللام في (لك) تفيد الملك، فلما كان يشعر بمكانته الشخصية تجاه آدم عليه السلام، - وهو الأمر الذي دفعه إلى إجابة المولى عز وجل بما هو أبلغ في الجحود، وهو قوله ﴿ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ ﴾ لأنه أشد في النفي من (لا أسجد) (١٣)، وُبّخ بصيغة تمس شخصه ﴿ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ ، لأن (ألاّ تكون) معمول لحرف محذوف تقديره " في " وحذف حرف الجر مطرد مع " أن ". وحرف" أن " يفيد المصدرية، فالتقدير :" في انتفاء كونك من الساجدين "(١٤). فكأن المعنى - والله أعلم - "أي شيء ثابت عندك أنت حتى لا تكون مع الساجدين".

ولعل ما يؤيد القول بأن التوبيخ واقع على الفعل في سورتي"ص" و "الأعراف"، وواقع على الفاعل في سورة الحجر، هو ورود أسلوب إجابة إبليس بخلاف نوعية الكلمة التي استخدمها الله سبحانه وتعالى في السؤال، لأنه تبارك وتعالى استعمل الفعل عند السؤال في سورتي "ص" والأعراف: (ما منعك)، وأجاب إبليس بالاسم (الضمير) ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف: ١٢]. وأما في سورة الحجر استعمل الله تعالى الاسم (متعلق الفاعل) في السؤال: (مالك)، فأجاب إبليس بالفعل﴿ ... لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ ... ﴾[الحجر: ٣٣].

ومما يؤيد ذلك أيضا جرس الأفعال المستخدمة لتصوير فعل إبليس في السور الثلاث، إذ الآيات كاملة هي: قوله تعالى في"ص"﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [ص: ٧٣ – ٧٤]، وقوله في سورة الأعراف﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [الأعراف: ١١]،وقوله في سورة الحجر ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾[الحجر: ٣٠ – ٣١] فالإيحاء الصوتي(١٥) الذي في (استكبر) و(لم يكن) تظهر قيمته التعبيرية أكثر في التعبير عن فعل إبليس لأول وهلة، بخلاف الإيحاء الصوتي الذي في (أبى) الذي يتبادر إلى أخذ انتباه القارىء أوالمستمع بسرعة فائقة إلى الصورة العنادية التكبرية المتأصلة في شخص إبليس، فيكون التركيز الأوّل على الفاعل ثم الفعل . ولعل قوله تعالى في سورة طه ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾[طه: ١١٦ – ١١٧] دليل على أن التعبير عن الفاعل هو المتبادر إلى الذهن في (أبى)، لأنه لما استعمل الكلمة في الآية الأولى قال مباشرة ﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ ... ﴾ [طه: ١١٧]، حيث أشار إلى إبليس نفسه، ولم يشر إلى فعله.

ومما يؤيد موقف الباحث أيضا في هذه النقطة قول الأستاذ حسنين محمد مخلوف، عند ما فسر قوله تعالى (مامنعك) في سورة الأعراف، بقوله:" ما اضطرك أو ما دعاك وحملك "(١٦)، وفسر قوله تعالى (مالك) في سورة الحجر، بقوله :" أي غرض لك أو ما عذرك "(١٧). لأنه مال إلى الفعلية في سورة الأعراف، حيث فسر بالأفعال؛ "اضطرك"، و"دعاك"، و"حملك"، ومال إلى الفاعلية في سورة الحجر، حيث فسر بالاسمين؛"غرض" و "عذر".

وعلى ضوء ما تقدم يمكن القول : إن المغزى الدلالي من التوبيخ في هذه السور راجع إلى موضوعها، لأن كل واحدة منها تمثل الصراع القائم المستمر بين الحق والباطل، حيث إن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يدعو كفار مكة إلى ما هو خير الدنيا والآخرة، فيقابلون ذلك بالاستهزاء والاستنكار والاستكبار، " على اختيار الله تعالى رجلا منهم ليكون رسولا، وأن يكون هذا الرجل محمد بن عبدالله الذي لم تسبق له رياسة فيهم ولا إمارة "(١٨). والله تكفل بالانتقام من الكفار المكذبين المتأصل فيهم العناد، كما تكفل ذلك من قبل في أمر إبليس اللعين. إذن القصة وافية لغرض من أغراض القصة القرآنية، وهو بيان نصر الله لأنبيائه(١٩)، إذ

القصة ترد فيه لغرض دعوي. فتكون بذلك تسلية لرسول الهدى صلى الله عليه وسلم. والله أعلم.. وهذا غاية في الإعجاز والبيان في القرآن الكريم.

وفي نفس القصة والموضوع، يقول تبارك وتعالى في سورة ص﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ٧٩ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ٨٠ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ٨١ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[ص: ٧٩ – ٨٢]، ويقول في سورة الحجر ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ٣٦ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ٣٧ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ٣٨ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[الحجر: ٣٦ – ٣٩]، ويقول أيضا في سورة الأعراف ﴿ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ١٤ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ١٥ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾[الأعراف: ١٤ – ١٦].

يُرى في هذه الآيات أنه وردت الفاء في قوله ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ ﴾ وفي قوله﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾ وذلك في سورتي "ص" و "الحجر"، بخلاف سورة الأعراف، حيث قال فيها﴿ قَالَ أَنظِرْنِيٓ ﴾ وقال في الطرف الثاني﴿ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾ بدون الفاء. قيل إن السر الدلالي هنا في سورتي "ص" و"الحجر" كامن في سابقية اللعنة على إبليس. وذلك في قوله في سورة "ص" ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾[ص: ٧٨]، وفي قوله في سورة الحجر ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾[الحجر: ٣٥]. فلذلك جيئ بالفاء، فكأنه قال" إن تحكم عليّ باللعنة رب فأنظرني ". وجاء الجواب له في الآيتين كذلك بالفاء ﴿ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾. وأما سورة الأعراف فلم يتقدم بها شئ من هذا، ولذلك خلت من النداء والفاء، كما خلا الجواب من ذلك(٢٠).

ويمكن القول بأن ورود الفاء وعدمها بمثابة المعاملة بالمثل. والله أعلم. ذلك لأن إبليس لما سمع اللعنة عليه، تضرع وخضع ليطلب من المولى عز وجل النظرة، فقدم بين ذلك فاصلة تدل على تعظيم الله تعالى، فجاء بالنداء "رب" وبالفاء، ولذلك أجيب بنفس الأسلوب، ولما لم يفعل ذلك في أسلوب سورة الأعراف، قدم له الجواب على نسق حديثه. ومما يدل على ورود الفاصل الدال على الاحترام، وعدم وروده دال على العكس في الأسلوب القرآني، استعمال الواو عند الحديث عن أخذ المؤمنين إلى الجنة وعدم استعمالها عند الحديث عن دفع الكفار إلى النار، ذلك لأنهم لا يستحقون أي احترام، وإنما يعجل بدفعهم إلى النار بمجرد وصولهم إليها، بخلاف المؤمنين الذين يوقفون بعد إحضارهم، وقبل دخولهم الجنة " لكي تقتص لهم مظالم كانت بينهم في الدنيا،حتى يطهروا ويصفوا ويهذّبوا وينقّوا ثم يدخلون الجنة "(٢١) فأي احترام أفضل من هذا ؟ قال تعالى في حق الكفار﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ... ﴾[الزمر: ٧١]،وقال في حق المؤمنين ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ... ﴾[الزمر: ٧٣]. قال الشوكاني في تفسير هذه الآية "... وقال الأخفش والكوفيون : الجواب : فتحت، والواو زائدة، وهو خطأ عند البصريين، لأن الواو من حروف المعاني، فلا تزاد. قيل: إن زيادة الواو دليل على أن الأبواب فتحت لهم قبل أن يأتوا لكرامتهم على الله، والتقدير : حتى إذا جاءوها، وأبوابها مفتحة بدليل قوله ﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴾[ص: ٥٠]، وحذفت الواو في قصة أهل النار، لأنهم وقفوا على النار، وفتحت بعد وقوفهم إذلالا، وترويعا "(٢٢). كما جاء في تفسير الجلالين :"... وسوقهم وفتح الأبواب قبل مجيئهم تكرمة لهم، وسوق الكفار وفتح أبواب جهنم عند مجيئهم ليبقى حرها إليهم إهانة لهم "(٢٣).

فالسر الدلالي في هذه النقطة يأتي في كون الكلام إنشاء طلبيا، تحت الأمر الخارج عن معناه الأصلي، لجأ إليه إبليس ليحقق ما في نفسه الشريرة، . كما سيتضح في النقطة التالية قريبا . مستعملا في خطابه الاسم (رب) إشعارا بإقراره بثبوت صفة الربوبية وإثباتها لله تعالى(٢٤). وأيضا السر الدلالي ظاهر في إجابة السامع بقدر ما يتطلبه كلام المتكلم، فيكون في هذا تحقيق لهدف تعليم الأدب في الحوار والمناقشة في القصص القرآني . وأيضا في هذه النقطة يفهم أن الجزاء من جنس العمل، إشارة وتأكيدا لمغزى النقطة السابقة، من أن الله تبارك وتعالى تكفل بنصرة أنبيائه وحماية عباده المخلصين، يقول إبليس اللعين نفسه ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾[الحجر: ٣٩-٤٠]. لأنه لما اختار الله سبحانه وتعالى آدم عليه السلام وأكرمه سخط لذلك

إبليس وعادى آدم وذريته، فأبعده الله عن رحمته، وهذه الصورة هي التي تظهر أمام كل كافر عدو للرسول صلى الله عليه وسلم في حياته، حتى القيامة، وهي سنة الله في عباده، ففي هذا تحقيق لغرض الدعوة إلى الصبر والثقة في الله من خلال أسلوب القصص القرآني المعجز لغة وبيانا.

وأما في قوله﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[ص: ٨٢]، وقوله﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الأعراف: ١٦]، وقوله أيضا﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[الحجر: ٣٩]. يلاحظ أنه تبارك وتعالى استعمل كلمة (فبعزتك) على لسان إبليس في سورة "ص" ولم يستعملها في سورتي الأعراف والحجر، ولعل هذا صادر من كون "ص" شاملة لكل ما في معنى التكريم والإعزاز من أول وهلة لسيدنا آدم عليه الصلاة والسلام، ذلك لأنها هي السورة التي سبقت نزولا قبل الأعراف والحجر(٢٥)، وفيها قوله تعالى﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [ص: ٧٢] (٢٦)، وقوله﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ... ﴾ [ص: ٧٥]، فإذا كان آدم نفخة من روح ربه، ومخلوقا بيده، فقد كملت العزة، وملائمة لذلك ذكر إبليس تلك الكلمة لما يعرف من الحق في تكامل العزة والكرامة في شخص آدم عليه السلام، إلا أن الحسد والحقد والكبر منعه من السجود لهذا المخلوق.

ويقول الدكتور أحمد جمال العمري معلقا على آيتي سورة "ص": "هذا إكرام عظيم من الله تعالى لآدم، حين خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه..."(٢٧) كما يقول في مكان آخر :" إن آدم شرفه الله بخلقه له بيده، ونفخه فيه من روحه، ولهذا أمر الملائكة بالسجود له..."(٢٨). ويقول ابن عاشور:" ولا شك في أن خلق آدم فيه عناية زائدة وتشريف اتصال أقرب "(٢٩).

ولما اعتقد إبليس في آدم وذريته الحقد والحسد لجأ إلى هذا القسم توكيدا لما أقسم عليه، "وهو قيامه بالإغواء دون تخلف، وإنما أقسم على ذلك وهو يعلم عظمة هذا القسم، لأنه وجد في نفسه أن الله أقدره على القيام بالإغواء والوسوسة... وقسمه بعزة الله ناشئ عن علمه بأنه لا يستطيع الإغواء إلا تحت قدرة الله، ولولا ذلك لم يستطع نقض قدرة الله تعالى"(٣٠)، ولذلك يُرى في مكان آخر يقرن القسم بالشرط، في قوله تعالى﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٦٢]، للدلالة على قوة قسمه معتمدا على تلك القدرة الإلهية، لأن الجواب في الجملة ليس للشرط، وإنما هو للقسم، إذ تقديره:"والله لئن أخرتن.."، "فاللام الداخلة على الشرط ليست بلام القسم، ولكنها زائدة، وتسمى الموطئة للقسم، ويعنون بذلك أنها مؤذنة بأن القسم منتظر، أي الشرط لا يصلح أن يكون جوابا لأن الجواب لا يكون إلا خبرا"(٣١).

إذن السر الدلالي في ورود هذا الأسلوب متوقف على الحال والموقف، وهو موقف العزة والكرامة، ولذلك استعمل إبليس كلمة "العزة".

وأما آية الأعراف ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ فقد قدّم فيها المجرور على عامله (فبما أغويتني) لإفادة معنى التعليل، فيكون بذلك قريبا من الشرط معنى، ثم جاء بالقسم(لأقعدن) تأكيدا لحصول ذلك منه، وتحقيقا للعزة عليه، وهذا غاية في إظهار نفسياته الشريرة وتحقيقها تجاه آدم عليه السلام وذريته . ولذلك استعمل الكناية في هذا الموقف، لأنه استعمل "القعود" قاصدا بذلك "الملازمة"، حيث إن ملازمة المكان تستلزم الإعياء من الوقوف عنده، فيقعد الملازم طلبا للراحة. فكأنه يقول:"سألازم صراطك المستقيم وأمنعه وأقطعه عنهم إغواء وإضلالا ". ومما يدل على إطلاق القعود كناية عن الملازمة، قول النابغة:

قعودا لدى أبياتهم يثمدونهم

رمى الله في تلك الأكف الكوانع

أي ملازمين أبياتا لغيرهم، يريد الجلوس، إذ قد يكونون يسألون واقفين، وماشين(٣٢). وأيضا أطلق الله تعالى اسم القعيد قاصدا بذلك الملازم، في قوله﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾[ق: ١٧]، أي ملازم، إذ الملك لا يوصف بقعود ولا قيام(٣٣). عموما، استعمل إبليس هذه الصورة للدلالة على مدى حقده وحسده وعداوته لآدم وذريته من بداية الكون إلى يوم القيامة، وصرح بهذا في قوله﴿ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧]. إذن السر الدلالي موجود من ورود الكناية التي تمثل للقارئ هيئة العازمين على فعل الخير، وعزمهم عليه، وتعرض الشيطان لهم بالمنع من

فعله بهيئة الساعي في طريق إلى مقصد ينفعه فإذا بطريقه قاطع طريق منعه من المرور فيه. وبلاغة هذه الكناية تظهر في كونها تعطي القارئ والمستمع حقيقة إبليس بأدلة واضحة، كما وردت في الآية السابقة، ثم إنها وضعت المعاني في صورة محسوسات(٣٤)كما يتضح أعلاه، وهذا غاية في الإعجاز لغة وبيانا.

وفي قوله تعالى (لما خلقت بيدي) استعارة بالكناية، حيث رُوعي فيها ملازمة القدرة لليد فشبهت القدرة باليد، ثم حذف المشبه وذكر المشبه به على طريقة الاستعارة التصريحية . ووضعت للدلالة على تمثيل تكوين آدم عليه الصلاة والسلام، بهيئة صنع الفخّاري للإناء من طين إذ يسويه بيديه(٣٥)، علما بأن أمر الله سبحانه وتعالى إذا أراد إيجاد شئ فإن كلمة "كن" هي العاملة﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[يس: ٨٢]، وإنما جيئ بهذه الاستعارة(٣٦) ـ والله أعلم ـ حملا للقارئ والمستمع على الوقوف أمام الابتكار الموجود في الآية، لروعة الخيال في الصورة التي تجعله يرى قدرة المولى عز وجل تدب في شخص آدم عليه السلام، والتي تثبت تمثل العزة فيه، وهو يتولى إيجاده من عدم بلا سبب.

وأما في آية الحجر فيرى أنه جيئ فيها بالنداء "رب"، ثم ورد فيها ما يدل على الجمع بين ما ورد في آية "ص" وما ورد في آية "الأعراف"، حيث قال﴿ ...بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ ... ﴾ [الحجر: ٣٩] فإنه يقابل ﴿ ... فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ ... ﴾[الأعراف: ١٦]، ثم قال ﴿ ... وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾ [الحجر: ٣٩]، وهذا يطابق ـ تماما ـ ما ورد في آية "ص" ﴿ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾[ص: ٨٢]. فإذا كان يلازم صراط الله المستقيم مترصدا بني آدم ليغويهم ويضلهم، فإن ذكر التزيين يدل على أنه سيحسن "القبيح ويجمله بزينته المصطنعة"(٣٧) إضلالا لهم على الأرض، فإن المعنى بذلك سواء، لأن النتيجة واحدة، وهي الإغواء والإضلال. فلجوؤه إلى النداء الدال على التعظيم(٣٨) لعله خضوع منه لتلك القدرة الإلهية التي يعرفها تماما، والتي بسماحتها يقدر على الإغواء.

وأما تشابه وتقارب التعبير الذي في هذه الآية وآيتي "ص" و "الأعراف" فيدل على أن المحتوى الوارد في الآية إعلان من المولى عز وجل على طي هذا المشهد من القصة، بنوع من التحذير الشديد لبني آدم جميعا على اتباع خطوات الشيطان، لذلك جمع المعاني التي في آية "ص" والتي في آية الأعراف في هذه الآية الكريمة. فكأنه يقول ـ والله أعلم ـ لبني آدم:" انتبه ! انتبه !!، هذه هي عدة إبليس ووعده الذي اتخذه على نفسه". وكلماته التي عبر بها عن نواياه دالة على طبق المعنى المقصود. ويمكن أن يقال إن هذا التحذير متمثل في قوله تعالى﴿ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٦٠ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ٦٢ ﴾[يس: ٦٠، و: ٦٢] تأمل هذا التوجيه المعروض بواسطة أسلوب متمتع بنبرات ونغمات مؤثرة على وجدان الإنسان بكل كيانه، مستعملا في ذلك أسلوب الإنشاء مضيفا إليه أسلوب الخبر.

وكذلك يتمثل التحذير في قوله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ... ﴾[النور: ٢١

وفي نقطة أخرى في نفس المشهد يقول تبارك وتعالى في سورة الأعراف﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا... ﴾[الأعراف: ١٩]، ويقول في سورة البقرة ﴿ وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا من .. ﴾ [البقرة: ٣٥]، يُلاحظ هنا أنه استعمل النداء في الآيتين، كما استعمل فعل الأمر (اسكن) فيهما، وكذلك الضمير، وإضافة كلمة " الزوج " إلى ضمير المخاطب، واستعمل كذلك لفظ " الجنة "، ثم اختلفت الآيتان في حرف العطف، فالأولى بالفاء والثانية بالواو، ثم استعمل فعل الأمر المتصل بألف الاثنين (كلا)، وفي الأولى استعمل "من" الدالة على التبعيض، وفي الثانية استعمل "منها" الدالة على متعلق المكان عموما (الجنة)، وذكرت كلمة "رغدا" في الثانية ولم تذكر في الأولى، ثم أورد لفظ (حيث شئتما) في الآيتين.

فورود النداء في الآيتين للتنبيه على عظم السكنى في الجنة وعلو شأنها، ليبادر أبونا آدم بالامتثال والاستجابة، وبهذا يكون السر الدلالي في هذا النداء منطلقا من احتوائه الإشارة إلى عظم وعلو مرتبة المكان الذي يطلب آدم عليه السلام أن يسكن فيه، وكان أصلا أن تستعمل "الهمزة" أو "أي" لندائه، ولكنه تعالى لما أراد أن ينبه على عظم وعلو شأن الأمر الذي نودي من أجله، استخدم "يا" الموضوعة لنداء البعيد ليبادر المنادى

بالامتثال والاستجابة(٣٩) ـ والله أعلم ـ .

واستعمال (اسكن) دلالة على الأمر الحقيقي، الذي هو :"طلب حصول الفعل على وجه الاستعلاء مع الإلزام"(٤٠)، فيعني هذا أن سيدنا آدم عليه السلام ملزم بالثبوت والاستقرار في الجنة، وهذه الدلالة تتعلق بأسلوب سورة البقرة، الدال على عدم تعلق الأكل بهذا الاستقرار، فلهذا ورد لفظ (وكلا) بالواو(٤١) دون الفاء، لأن الأمر بالسكنى وقع بعد دخول آدم عليه السلام الجنة، وقصد بهذه السكنى الإقامة التي لا يترتب عليها الأكل، بل كل من الإقامة والأكل نعمة مستقلة بذاتها(٤٢)، في حين أن أسلوب سورة الأعراف دال على إلزام السكنى، أي اتخذ المسكن، "ولا يقصد بذلك الإقامة، بدليل قوله تعالى﴿ ... ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ... ﴾ [الأعراف: ١٨]، فإبليس يخرج منها ليتخذها آدم مسكنا، وللدلالة على ترتب الأكل على اتخاذ المسكن، عطف بالفاء (فكلا)"(٤٣).

ومن أجل ما تقدم اختلف العلماء في هذا الأمر : هل هو إلزام أم إباحة ؟ فمنهم من يرى أنه أمر حقيقي، مثل قتادة حيث يقول :" إن الله ابتلى آدم بإسكانه الجنة كما ابتلى الملائكة بالسجود له، وذلك لأن كلفه بأن يكون في الجنة يأكل منها حيث شاء، ونهاه عن شجرة واحدة "(٤٤). ومنهم من يرى أنه إباحة، وإلى هذا أشار ابن عادل بقوله :" قال بعضهم : قوله(اسكن) تنبيه عن الخروج، لأن السكنى لا تكون ملكا، لأن من أسكن رجلا مسكنا له فإنه لا يملكه بالسكنى، وأنه يخرجه منه إذا انقضت مدة الإسكان، وكان الشعبي يقول : إذا قال الرجل : داري لك سكنى حتى تموت، فهي له حياته وموته، وإذا قال : داري هذه اسكنها حتى تموت، فإنها ترجع إلى صاحبها إذا مات ... "(٤٥). وكان قبل ذلك علق على القضية بقوله :" والصحيح أن ذلك الإسكان مشتمل على إباحة، وهي الانتفاع بجميع نعم الجنة، وعلى تكليف، وهو النهي عن أكل الشجرة "(٤٦). ويبدو أن محمد بسام رشدي الزين ذهب مذهبه، حيث قال :" وأسكن الله ـ تعالى ـ آدم وزوجه الجنة، وأباح لهما ثمارها وأشجارها، وهواءها وماءها، وعسلها ولبنها، يتمتعان فيها، ويتفيأان ظلالها ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾[البقرة: ٣٥]. وشاء الحق ـ سبحانه ـ أن يعلم آدم وزوجه تقوية الإرادة فنهاهما عن الاقتراب من شجرة معينة لم يذكر في الصحيح نوعها﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (٤٧)".

ولعل هذا الاختلاف الذي حدث منطلق من أن الأمر متسق مع موضوع كل سورة، لأن "القصة في سورة الأعراف وردت في سياق أن الناس قليلا ما يشكرون الله الذي مكنهم في الأرض وجعل لهم فيها معايش"(٤٨)، مبيحا لهم ذلك، فصورتهم هذه يؤخذ منها الدرس الحي في موقف إبليس مع آدم عليه السلام. وأما "القصة في سورة البقرة فوردت في سياق تذكير الناس بنعمة الله، والعجب منهم أنهم يكفرون به"(٤٩)، وهم مكلفون بواجبات عليهم فعلها تقوية لإرادتهم، وهذا يؤدي بهم إلى وصول درجة رفيعة عند ربهم، كما حصل هذا لآدم عليه الصلاة والسلام حيث جعله الله تعالى خليفة. ويضاف إلى هذا أن "سورة البقرة هي سورة التكاليف التي كلفت بها الجماعة المؤمنة، وهذه التكاليف لابد لها من علم فمن علم بها وعمل كان جديرا أن يكون خليفة في هذه الأرض"(٥٠) ولهذا ورد أسلوبها بما يدل على الإلزام ـ والله أعلم ـ .

إذن السر الدلالي البلاغي لهذا الأمر (اسكن) جاريا مع الموقف أو مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وهو في نفس الوقت وافيا لغرض القصة، الذي هو تسلية لرسول الهدى صلى الله عليه وسلم، عما يلاقيه من الكفرة واليهود(٥١)، ولله عليه المنة والكرامة و أنه مكلف بكل ما تستحقه خلافة الله تعالى على الأرض. ويمكن القول بأن هذا الأسلوب الإنشائي جيئ به دلالة على أن الحياة البشرية في الكون مشتملة على أمور مباحة، وأخرى فيها تكليف للدلالة على القوة الإرادية الكامنة في البشرية، التي إذا استفاد منها الإنسان فقد أفلح ونجا، وإلا فالعكس. وأخيرا لا يخرج هذا الأمر من كونه امتنانا بالتمكين والتخويل، فيكون الجمع بينه وبين النداء ﴿ يَٰٓـَٔادَمُ ﴾ إعلانا بإكرام آدم عليه السلام وذريته بالعيش الهنيئ"(٥٢)، الذي لا يريد الشيطان حصوله ـ والله أعلم ـ .

فجاء هذا الإكرام مباشرة في قوله تعالى ﴿ رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ وهذا الأسلوب إيحاء لكمال كرامة الله تعالى لآدم وذريته، وهو أدل على ذلك من أسلوب سورة الأعراف، لأنها خلت من كلمة (رغدا) الدالة على وصف لمصدر محذوف، تقديره :" أكلا "، وهي تعني: العيش الهنيئ الواسع الذي لا عناء فيه ولا تقتير(٥٣). ثم في قوله (حيث شئتما) دلالة على "الأكل من الجنة على وجه

التوسعة البالغة المزيحة للعلة ..."(٥٤)، "وهو أدل على التعميم، مما جاء في سورة الأعراف (من حيث)"(٥٥)، وفي هذا إيحاء بـ" العموم في الإذن بطريق اللزوم، وفي جعل الأكل من الثمر من أحوال آدم وزوجه... تنبيه على أن الله جعل الاقتيات جبلة للإنسان لا تدوم حياته إلا به"(٥٦).

فالسر الدلالي في هذه النقطة كامن في أن الله تعالى أراد أن يشير لأبليس اللعين، بأنه تعالى فعال لما يريد ويفضل بعض عباده على بعض بمشيئته جل جلاله، كما هو الحال في الوقائع التي واجهها رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل المعتدين المتكبرين على شرائعه تعالى، فتكون العاقبة للرسول والمؤمنين معه.

هذا، وعند النظرة العامة، يمكن القول بأن الأسلوب الإنشائي(الاستفهام، والنداء، والأمر)، والاستعارة، والأسلوب الكنائي، كلها وردت في قصة آدم عليه الصلاة والسلام، لإيضاح الحقيقة الكونية الظاهرة في الصراع الدائم بين الحق والباطل(٥٧)، وجيئ بها من خلال سياق عجيب، مبدع، مليئ بإيحاءات دقيقة، تحت أساليب معجزة، وبيان بالغ الجودة في كليته، ذلك لكون البيان أداة تعبير عن الظاهرة الواحدة بطرق متعددة، مع مراعاة مطابقة المعاني لمقتضى الحال - كما هو الموضح في الكتب البلاغية (٥٨).

الخاتمة

بعد هذا العرض المتواضع للدراسة البلاغية التحليلية، للسر الدلالي الكامن في تنوع أسلوب عرض قصة آدم عليه السلام في القرآن الكريم، فقد توصل الباحث إلى الآتي :

١- إن القرآن الكريم راعى دلالة الألفاظ بدقة متناهية، حيث وضعها في أماكنها اللائقة، لايمكن للفظ أن يؤدي الوظيفة الدلالية التي يؤديها غيره .

٢ - إن الصور البلاغية الواردة في كتاب الله، جاءت لخدمة الدلالة، حتى تكون المعاني راسخة في أذهان البشر، علّهم يدركونها ويفهمونها حق فهم، ثم ينتفعون بها .

٣ -إن العبر والوعظ ، معروض في القصص القرآني بواسطة الأسلوب اللغوي البديع، بحيث يعقد العلاقة الدلالية المختلفة بلاغيا بين مدلولات الألفاظ، إعجازا للبشرية جمعاء .

٤ - إن اللغة العربية مطاوعة لعرضها القضايا الإنسانية القديمة في ثوب الألفاظ الحية، المعبرة بكل دقة، فتوجز، أو تسهب، أو تتوسط، على حسب الموضوع والمقام، مما يدل على أن طريقة إنتاج الألفاظ شبه متناهية في اللغة العربية، لمحصوريتها في الحروف الهجائية المحددة، إلا أن دلالتها للمعاني غير متناهية لتعدد طرق تأديتها .

٥ - إن القصة أو ذكر أحداثها، ليست هي الغاية المنشودة في القرآن الكريم، بل ما وراء ذلك من إيصال الرسالة الإلهية إلى الخلق، ولذلك اقتصرت قصة آدم عليه السلام على عرض أهم الأحداث التي جرت عند خلقه حتى نزوله إلى الأرض، بلا خوض في تفاصيل دقيقة لا طائل منها .

الهوامش والمراجع:

١- الطاهر محمد داود : الرسم القرآني لشخصية إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ ، S. K. AMODU PRINTERS.، جمادى الأولى ١٤٢٧هـ ـ يونيو ٢٠٠٦م، ص: ٩٣.

٢- حمدان حسين محمد : التفكير اللغوي الدلالي عند علماء العربية المتقدمين، كلية الدعوة الإسلامية، الجماهيرية العظمى ـ طرابلس، الطبعة الأولى ٢٠٠٢م، ص : ٢٣٥ .

٣- انظر: فضل حسن عباس: القصص القرآني، إيحائه ونفحاته، الطبعة الأولى ١٤٠٧/ ١٩٨٧م، دار الفرقان، ص: ٢٢.

٤- المرجع نفسه، ص: ٢٣ـ ٢٤.

٥- المرجع السابق، ص : ٢٣.

٦- أحمد الشرباصي : من أدب القرآن، الطبعة الثالثة، دار المعارف،١٩٩٢م، ص: ١٩٦.

٧- للوقوف على هذه الظاهرة البيانية انظر : بسيوني عبدالفتاح فيّود : علم المعاني، دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ص : ١١٧، و : أحمد الهاشمي : جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، دار الفكر، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص : ١٠٥.

٨- عن هذه المسألة انظر : أحمد الهاشمي، ص : ٩٤ (الهامش رقم : ١)، ولتعزيز القول بإنكارية الاستفهام وتوبيخيته، يقول عبدالعظيم إبراهيم المطعني في تعليق له على آية سورة ص :" والاستفهام في قوله تعالى(ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي) استفهام إنكار وتهديد وتوبيخ..."(راجع : عبدالعظيم إبراهيم المطعني : التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم، مكتبة وهبة ـ القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، الجزء الثالث، ص : ٤٠٦)، ويقول عن آية سورة الحجر :" والاستفهام ـ هنا ـ كما نص كثير من الأئمة للإنكار أصلا ثم ينشأ عنه التوبيخ. ومبنى الإنكار أن الله تعالى استفهم، وهو العليم ـ عن السبب الذي منع إبليس من السجود "(راجع: عبدالعظيم إبراهيم المطعني،الجزء الثاني،ص:١٨١)،كما قال عن آية سورة الأعراف:"والخلاصة : أن المراد من الاستفهام هو الإنكار... وهذا الإنكار ظاهر في المقصود من الاستفهام فالله سبحانه وتعالى ينكر على إبليس عصيانه أمره بترك السجود الذي أمره به، ثم ترتب على هذا الإنكار توبيخه وتقريعه وهما معنيان يأتيان تابعين دائما إما للإنكار، وإما للتقرير "(راجع : عبدالعظيم إبراهيم المطعني، الجزء الأول، ص : ٣٦١) .

٩- لهذه الدلالة انظر : عبدالقاهر بن عبدالرحمن بن محمد الجرجاني النحوي : دلائل الإعجاز، الطبعة الثالثة ١٤١٣/ ١٩٩٢م، دار المدني بجدة، ص : ١١٤ـ ١١٥.

١٠- محمد الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير، المجلد السابع، ص : ٤٧٧، من المكتبة الشاملة، الإصدار الثاني.

١١- عبدالرحمن السيوطي الشافعي : الإتقان في علوم القرآن، المكتبة الثقافية بيروت ـ لبنان ١٩٧٣م، الجزء الثاني، ص : ٧٩.

١٢- محمد الطاهر بن عاشور، المجلد الثاني عشر، ص : ٢٦١، من المكتبة الشاملة، الإصدار الثاني.

١٣- محمد الطاهر بن عاشور، المجلد السابع ، ص : ٤٧٧، من المكتبة الشاملة، الإصدار الثاني.

١٤- محمد الطاهر بن عاشور، المجلد السابع، ص : ٤٧٧، من المكتبة الشاملة، الإصدار الثاني.

١٥- انظر : محمد كريم الكواز : الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، مكتب الإعلام والبحوث والنشر، بجمعية الدعوة الإسلامية العالمية، الطبعة الأولى ١٤٢٦م، ص : ٣٣١ـ ٣٣٤.

١٦- حسنين محمد مخلوف : كلمات القرآن، تفسير وبيان، بدون الطبعة والتاريخ،ص :٨٧.

١٧- المرجع نفسه، ص : ١٥١.

١٨- سيد قطب : في ظلال القرآن، المجلد السادس ، ص : ١٩٦ ، من المكتبة الشاملة ، الإصدار الثاني ، بتصرف بسيط.

١٩- راجع : محمود السيد حسن مصطفى : الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية، مؤسسة شباب الجامعة، الطبعة الأولى ١٩٨١، ص : ١٥٠.

٢٠- فضل حسن عباس، ص : ٥٦ ، مع تصرف بسيط.

٢١- انظر : أبوالفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي : تفسير القرآن العظيم، المجلد السابع ، ص : ١١٩ ، من المكتبة الشاملة، الإصدار

الثاني.

٢٢- محمد بن علي الشوكاني : فتح القدير، المجلد السادس، ص : ٣٠٧، من المكتبة الشاملة، الإصدار الثاني.

٢٣- عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي ومحمد بن أحمد المحلى : تفسير الجلالين للقرآن العظيم، بدون الطبعة والتاريخ، الجزء الثاني، ص : ١٦٤.

٢٤- ذكر محمد السيد حسن مصطفى؛ صاحب الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية، أن هناك فرقا بين الخطاب بالاسم والخطاب بالفعل، حيث يدل الأول على الثبوت والاستقرار، ويدل الثاني على التجدد والحدوث، انظر المؤلف، ص : ٣٤٣.

٢٥- هذا ما أشار إليه صاحب القصص القرآني، إيحائه ونفحاته، ص : ٥٥.

٢٦- وهذا لا يعني أن هذه الآية لم ترد في سورة الحجر، الآية : ٢٩.

٢٧- أحمد جمال العمري : دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني، مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الثانية ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، ص : ١٢٥.

٢٨- أحمد جمال العمري، ص : ١٢٦، مع تصرف بسيط.

٢٩- محمد الطاهر بن عاشور، المجلد الثاني عشر، ص : ٢٦١، من المكتبة الشاملة، الإصدار الثاني.

٣٠- المرجع نفسه، ص : ٢٦٥، مع التصرف.

٣١- حسين نصار : القسم في القرآن الكريم، الطبعة الأولى ١٤٢١ / ٢٠٠١م، مكتبة الثقافة الدينية، ص : ٩٦.

٣٢- انظر :محمد الطاهر بن عاشور، المجلد الخامس، ص : ٢٤٥، من المكتبة الشاملة، الإصدار الثاني.

٣٣- المرجع نفسه والصفحة، من المكتبة الشاملة، الإصدار الثاني.

٣٤- هذه هي وظيفة الكناية، انظر: عبدالقاهر الجرجاني، ص: ٤٣٠ـ ٤٣١، و: شرح مواهب الفتاح، لابن يعقوب المغربي، على تلخيص المفتاح، لجلال الدين القزويني، تحقيق الدكتور عبدالحميد هنداوي، المكتبة العصرية، صيدا. بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٦م، الجزء الثاني، ص: ٤٢٧ـ ٤٥٤، و: حامد عوني: المنهاج الواضح للبلاغة، مكتبة الجامعة الأزهرية، بدون الطبعة والتاريخ، الجزء الخامس، ص: ١٥١ـ١٦٢، و: أحمد الهاشمي، ص: ٣٥٤، و: عبدالعزيز عتيق: علم البيان، دار الآفاق العربية، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص: ١٥٣.

٣٥- محمد الطاهر بن عاشور،المجلد الثاني عشر، ص : ٢٦١، من المكتبة الشاملة، الإصدار الثاني، مع تصرف بسيط.

٣٦- للوقوف على سر وبلاغة الاستعارة يمكن مراجعة: كتاب دلائل الإعجاز، ص: ٣٩١ـ ٣٩٣، و: بكري شيخ أمين: البلاغة في ثوبها الجديد، علم البيان، دار العلم للملايين، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثالثة ١٩٩٠، الجزء الثاني، ص: ١٤٣ ـ ١٥٠، و: جواهر البلاغة، ص: ٣٤٣ ـ ٣٤٤.

٣٧- انظر: سيد قطب، المجلد الرابع، ص: ٤٣٧، من المكتبة الشاملة، الإصدار الثاني.

٣٨- يقصد الباحث بهذا قوله :" رب "، إلا أن الدكتور عبدالعظيم إبراهيم محمد المطعني يرى أن الكلمة استعملت في الآية للتوعد، انظر : دراسات جديدة في إعجاز القرآن، مناهج تطبيقية في" توظيف اللغة "، مكتبة وهبة، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، ص: ٢٧٦.

٣٩- للوقوف على هذه الدلالة المذكورة، يمكن الرجوع إلى : علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني، ص: ١١٧.

٤٠- أحمد الهاشمي ، ص: ٧٧.

٤١- انظر: ابن عادل: تفسير اللباب، الجزء الأول، ص: ٢٣٨، من المكتبة الشاملة، الإصدار الثاني.

٤٢- انظر : فضل حسن عباس، ص: ٥٧.

٤٣- المرجع نفسه والصفحة، مع تصرف.

٤٤- ابن عادل، الجزء الأول، ص:٢٣٥، من المكتبة الشاملة، الإصدار الثاني، مع تصرف بسيط.

٤٥- ابن عادل، الجزء الأول، ص: ٢٣٥، من المكتبة الشاملة، الإصدار الثاني.

٤٦- المرجع نفسه والصفحة.

٤٧- محمد بسام رشدي الزين: مدرسة الأنبياء عبر وأضواء، دار الفكر المعاصر، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثانية ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م، ص: ١٥.

٤٨- فضل حسن عباس، ص: ٥٤، مع تصرف بسيط.

٤٩- المرجع نفسه والصفحة، مع تصرف بسيط. وانظر: سيد قطب، المجلد الأول، ص: ٢٧، من المكتبة الشاملة، الإصدار الثاني.

٥٠- فضل حسن عباس، ص: ٥٤، (انظر الهامش).

٥١- للوقوف على بعض ما قام به الكفار من ناحية واليهود من ناحية أخرى ضد الرسول صلى الله عليه وسلم، يمكن الرجوع إلى: الواحدي النيسابوري: أسباب النزول، وكل كتاب في أسباب النزول، لمعرفة أسباب نزول أغلبية آيات سورة البقرة.

٥٢- انظر: محمد الطاهر بن عاشور، المجلد الأول، ص: ٢٣٣، من المكتبة الشاملة، الإصدار الثاني.

٥٣- انظر: المرجع نفسه، ص: ٢٣٦، و: أبوالقاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله: الكشاف، المجلد الأول، ص: ٨١، و: الشوكاني: فتح القدير،المجلد الأول، ص: ٧٤، و: سيد قطب، المجلد الأول، ص: ٣٠، من المكتبة الشاملة، الإصدار الثاني.

٥٤- الزمخشري، المجلد الأول، ص: ٨١، من المكتبة الشاملة، الإصدار الثاني.

٥٥- فضل حسن عباس، ص: ٥٧.

٥٦- محمد الطاهر بن عاشور، المجلد الأول، ص: ٢٣٦، من المكتبة الشاملة، الإصدار الثاني.

٥٧- يقول الشيخ محمد علي الصابوني عن سر بلاغة الكناية " ... أنها تعطيك الحقيقة مصحوبة بدليلها، وتضع لك المعاني في صور الأشياء المحسوسة... " راجع: محمد علي الصابوني: الإبداع البياني في القرآن العظيم، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م، ص: ٢٥.

٥٨- راجع: حسن إسماعيل عبدالرزاق: البلاغة الصافية في المعاني والبيان والبديع، المكتبة الأزهرية للتراث، ٢٠٠٦، ص: ٨٨، و: أحمد أحمد فشل: علم المعاني، رؤية جديدة، ٢٠٠٠م، ص: ١٤-١٩، وأيضا: أحمد الهاشمي، ص: ٤٥-٤٦.